النقد الأدبي في العصر الأموي ج1

في أواخر القرن الهجري الأول تغيرت الحال كثيرا فارتقى النقد الأدبي ارتقاءً ملموسًا وكثر الحديث فيه لأسباب أهمّها:

أولا: تطور الشعر في أواخر القرن الأول، حيث اجتمع شعراء كثيرون من مختلف الأقاليم في ظلال الإسلام، وقد كانوا من نزعات مختلفة ومذاهب أدبية متباينة منهم عمر بن أبي ربيعة في مكة، والأحوص وعبيد الله بن قيس الرقيات في المدينة، وجميل بن معمر وذو الرمّة في البادية، وجرير والفرزدق في العراق، والأخطل في الشام، والكميت الأسدي في الكوفة وغيرهم، وهؤلاء نضجت مواهبهم في أواخر القرن الأول، وقد كثر الكلام فيهم وكثرت الموازنة بينهم، وكانوا مادة كبيرة للنقد الأدبي.

ثانيا: تعدد البيئات النقدية سواء في البوادي أو في الحواضر: فمكة مجتمع الشعراء في موسم الحج، والمدينة مقام بعض العلماء، ودمشق بلد الوفادة على الخلفاء، والبصرة والكوفة مقام الكثير من الشعراء وفصحاء العرب.

ثالثا: رجوع العصبية القبلية إلى عهدها الجاهلي، فقويت الخصومة بين الشعراء، وأمد بنو أمية هذه الخصومة بالوقود، فهذه العصبية التي دعت إلى التهاجي والخصام دعت أيضا إلى الانشغال بالشعر والشعراء.

هذه العوامل وغيرها تضافرت على خلق روح جديدة في النقد، وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه تحليلا فيه شيء من العمق والنظر، وفيه اختلاف في الذوق والحكم.

ونستطيع أن نميز ثلاث بيئات نما فيها النقد وازدهر إبان العصر الأموي وهي: الحجاز، والعراق، والشام.

1- النقد في الحجاز:

كانت الحجاز في العصر الأموي وخاصة مكة والمدينة حافلة بأنواع الترف، فقد تمركز أبناء الصحابة فيها، وأغدق عليهم خلفاء بني أمية الأموال، وأمدوهم بأسباب الترف من عبيد وجوار حتى يشغلوهم عن السياسة على حد رأي طه حسين. وكما كان في مكة والمدينة حركة دينية واسعة من درس للقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه، كانت في الوقت نفسه أكبر مركز لحياة اللهو والعبث، ففيهما أكبر المغنين والمغنيات من أمثال ابن سريج والغريض ومعبد. كما انتشرت به دور الفيان وأماكن الغناء واللهو، وقد كان فقهاء الحجاز كما روى ابن عبد ربه يجيزون الغناء، واشتهر غير واحد من أبناء الصحابة بحبه للغناء كعبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وتأسيسا على هذا انتشر في الحجاز إبّان هذا العصر نوع من الشعر هو الغزل المناسب لحياة اللهو والترف والغناء، وكان يحمل لواءه عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، ونصيب، وكثير

عزة، وابن قيس الرقيات، بالإضافة إلى الغزل العذري في بوادي الحجازي بزعامة جميل بن معمر، وقيس بن الملوح، وقيس بن ذريح.

ومن هنا وجدنا النقد الأدبي في الحجاز ينصب على هذا النوع من الشعر أي الغزل، فيتناوله بالتحليل والنقد في مجالس أدبية طريفة ممتعة اشتهر بتصدرها ناقدان بارزان:

أمّا أولهما فابن أبي عتيق وهو من أعلى الناس نسبا إذ يرجع نسبه إلى جدّه أبي بكر الصديق، ويقول عنه المبرد: إنّه من نساك قريش وظرفائهم، وقد غلبت عليه الدعاية واشتهر بها، وكان من الرواة الموثوق بهم في الرواية، وهو مع هذا كله يقول عن نفسه: "أنا بالحسن عالم نظار" كما وصفه عمر بن أبي ربيعة بذلك فقال:

ودعاني ماقال فيها عتيق وهو بالحسن عالم نظار

وقد ملأ الحجاز في عصره نقدا ظريفا لكثير من الشعراء، فتعقب عمر في شعره، وكان يفضله على معاصريه وقول: "إنّ لشعر عمر لوطة بالقلب، وعلوقا بالنفس، ودركًا للحاجة ليست لشعر غيره، وماعصي الله عز وجل بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن ابي ربيعة"، وكتاب الأغاني للأصفهاني مليء بنقد ابن أبي عتيق قوله:

ولست براض من خليل بنائل قليل ولاراض له بقليل

فقال ابن أبي عتيق:هذا كلام مكافيء وليس بعاشق، وعمر أصدق منك وأقنع حيث يقول:

فَعِدِى نائلاً وإن لم تنيليي إنه يقنع المحبّ الرجاء

وسمع عمر بن أبي ربيعة مرّة ينشد قوله:

بينما ينعتنني أبصرننيي دون قيد الميل يغدو بي الأغر

قالت: أتعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها، إنما نسبت بنفسك.

وأنشد كثير عزّة يومًا قوله:

كذبن صفاء الود يوم محلّه وأدركني من عهدهن رهون

فقال ابن أبي عتيق: يابن أبي جمعة، فذاك والله أصلح لهنّ، وأدعى للقلوب إليهن. ولابن أبي عتيق من مثل هذا النقد الشيء الكثير مما هو مبثوث في كتب الأدب.

وأمّا الناقد الثاني فالسيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب التي كانت من أجمل نساء عصرها وأظرفهن، قال فيها صاحب الأغاني: "إنها عفيفة برزة تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع إليه الشعراء، وكانت ظريفة مزاحة"

وقد أثرت عنها الكثير من المجالس الأدبية والنقدية في كتب الأدب، فهي مثلا تسمع نصيبا يقول:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فواعجبا من ذا يهيم بها بعدي

فتعيبنه بأنه صرف رأيه إلى من يعشقها بعده، وتفضل أن يقول:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ويروى أنها استمعت إلى قول جرير:

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي سلام

فقالت له: ما أحسنت ولا سلكت طريقة الشعراء، أن يكون وقت لا تصلح فيه زيارة الحبيب؟ ألا رحبت وقرّبت وقلت: فادخلي سلام.

وهكذا نلاحظ كيف تلون النقد بلون البيئة الشعرية السائدة في الحجاز إبّان العصر الأموي.